مجلة
دراسات إنسانية

تصدرعن جامعة مستغانم
ISSN: 2437-119X

العـدد: 04 (2018)، ص ص 118- 136

اللغة والاعتقاد، بين أدلوجة النص و ابستيمية اليقين

بن يمينة كريم محمد*

جامعة د.الطاهر مولاي، سعيدة (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2018/09/25 تاريخ النشر: 2018/12/28

الملخص:

اللغة في كثير من مراحلها تؤسس لمفهوم الإيمان وماهيات اليقين، حتى أنّ أبحاث الفلاسفة لم تخل من اعتقاد بما يخالف أصول اللغة، بينما شغل نهج اللغة آخرين عن منهج الاعتقاد، ولم يسلم العلم بدوره من جدلية الإدراك واليقين، ومن إبداعية البيان والتبيين، فأفعال الكلام من دقيقها إلى جليلها وكذا جميلها لا تخلص من قضايا الاعتقاد، ويمارس الفعل اللغوي تحريكا فكريا ودفعا وجدانيا لتنمية إرادة الاعتقاد.

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ الاعتقاد؛ أدلوجة النص؛ ابستيمية اليقين.

Abstract:

Language in many of its stages establishes the concept of faith and the essences of certainty, to the extent that the philosophers' research has not been devoid of belief in what contradicts the origins of language, while the language approach preoccupied others from the approach to belief. Its subtle to its sublime, as well as its beauty, does not get rid of the issues of belief, and the linguistic act is practiced as an intellectual mobilization and an emotional impulse to develop the will of belief.

Keywords: The language; Belief; Ideological text; Epistemic certainty.

*بن يمينة كريم محمد، جامعة د.الطاهر مولاي، سعيدة، الجزائر، karimmedb@yahoo.fr

1. مقدمة:

الإنسان كائن لغوي يستمد جوده من اللغة التي يعبّر بها عن الموجودات الماثلة أمامه، يحيا أنطولوجيا العلاقات في تواصلية الدوال وانفصالية المدلولات، يبتغي ولوج عوالم اليقين وإيجاد تمثلات ونصوص تقوده إلى الاعتقاد، وتحطيم أصنام الاستيلاب وسلطة المنظومات وأسطرة الملفوظات، وتجاوز أدلوجة القطيع، هذه الإرادة الفاهمة التي تنقله من القول إلى الفعل، فيمارس الفعل اللغوي تحريكا فكريا ودفعا وجدانيا لتنمية إرادة الاعتقاد، فأفعال الكلام من دقيقها إلى جليلها وكذا جميلها لا تخلص من قضايا الاعتقاد، فاللغة في كثير من مراحلها تؤسس لأفهوم الإيمان وماهيات اليقين، حتى أنّ أبحاث الفلاسفة لم تخل من اعتقاد بما يخالف أصول اللغة، بينما شغل نهج اللغة آخرين عن منهج الاعتقاد، ولم يسلم العلم بدوره من جدلية الإدراك و اليقين، و من إبداعية البيان و التبيين.

أولا: في المنهج [من ابستيمية العلامة إلى سيميوزيس اليقين]

نستعين بالإبستمولوجيا لفك شفرة اعتباطية اللغة، هذا الهاجس الذي رافق الفلاسفة والمفكرين منذ الأسماء الأولى، و بذلك يمكننا أن نعرّف اللغة إبستيميا بأنها «معرفة الدال قصد التداول به»، إذ لا يمكن أن ننشئ نظاما فكريا دون أن نؤسس له سيميوطيقيا ودون أن نفتح أمامه جغرافية الأنساق، ونحن بذلك لا نقف عند حدود الخلق اللغوي، إنما نتجاوز ذلك إلى الاستعمال، فإذا كانت الدلالة بحث في التصورات، و خارجه لفقه العلاقات التي تجمع بين مختلف الألفاظ الممكنة و المعاني المقترحة، فإنّ الابستيما تعيننا على إدراك تلك التركيبة التي توحد بين الظواهر، و تعطينا حق ممارسة التفكيك، فنخلص من جدل التوقيفية والتوفيقية، ونجتاز كل تلفيقية تبتغي مدنا بجينيالوجيا مبتورة الأصل محبوكة الأطراف.

ثانيا: في اللغة [من أنطولوجيا الدال إلى إرادة المدلول]

يعرف دوسوسير اللغة بأنها:«نظام لساني من العلامات الصوتية المنطوقة التي تمكن الأفراد من التواصل بينهم .. وهي قدرة مشتركة بين أفراد البشر يتم تحسينها بواسطة اللسان. ويستعمل لفظ Language للإشارة إلى النظام الاصطلاحي الذي يتعلق بميدان معين مثل: لغة الحاسوب، لغة الحيوان، لغة الصم والبكم...» (فردينان، 1985، ص 175). وحسب دوسوسير فاللغة : «نظام خاص من العلامات يُمَّكِن أفراد جماعة لغوية معينة من التواصل فيما بينهم» (فردينان، 1985، ص 175-176). ويضيف أنّ اللغة «نظام من العناصر المعتمدة بعضها على بعض، تنتج قيمة كل عنصر من وجود العناصر الأخرى في وقت واحد» (فردينان، 1985، ص 134)، فاللغة اشتراك كوني بين مختلف الموجودات التي تخضع لنظام واحدة قصد التواصل وتبادل الفعل الدلائلي داخل نظام من العناصر.

واللغة وظيفة تمد الفكر بأدوات الاتصال، لتصبح بذلك إرادة تواصلية، ولا تقف عند حدود الصوت، إذ يؤكد دوسوسير: «أنّ الدور المميز للغة بالنسبة للفكر ليس وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، بل القيام بوظيفة حلقة الوصل بين الفكر و الصوت». (فردينان، 1985، ص 132). فالدال صورة صوتية، أما المدلول فهو صورة ذهنية، وبذلك يعتمد التواصل الإجتماعي على الاتصال الصوتي، لبلوغ التواصل الذهني، أي من الصوت إلى الصورة، من الفيزياء إلى الرياضيات، هذه الإبستيمة التي تنفتح على كل الاحتمالات السوسيولوجية و السيميائية والابستمولوجية في تحليل شتى أنواع الخطابات.

تنتج اللغة كمًا هائلا من النصوص، مما يحرك أنماطا وفيرة من أصول المعرفة كالهرمنيوطيقا والأركيولوجيا وصولا إلى السيميولوجيا والأنثروبولوجيا أو إلى نواحي غير مأهولة هي شبيهة باليوتوبيا أو الميتافيزيقا، «إنّ الإرث الإجتماعي لا يحيل، في تصورنا، على لغة بعينها باعتبارها نسقًا من القواعد فقط، بل يتسع هذا المفهوم ليشمل الموسوعة العامة التي أنتجها الاستعمال الخاص لهذه اللغة، أي المواصفات الثقافية التي أنتجتها

اللغة، و كذا تاريخ التأويلات السابقة الخاصة بمجموعة كبيرة من النصوص» (أمبرتو، 2004، ص 86)، فتاريخ الإنسان من تاريخ اللغة، وجدل البنيوية من جدل العلامات.

يقوم فعل التواصل على ثنائية (الكلام و السمع)، فالكلام هو الحديث (أي من الأفكار إلى الكلمات، باستخدام مدركات و مشاعر و مقاصد)، أما السمع فهو التحويل (أي من الكلمات إلى الأفكار بإعادة صياغة و تركيب المدركات والمشاعر والمقاصد). إنّ القصدية التي تمارسها اللغة في كثير من الأحيان بقصد أو دونه، قد تُحملها دلالات غير معلن عنها، فيتلبس على الشعور الاستعلاء، فالشعور ينتهي حينما تبدأ اللغة، «فهي التي تصنع الشعور وهي التي تبني القصدية القاصدة، فاللغة في علوها ليست موضوعا عاليًا، لكنها في عامل الممكن غير المتحقق لها وجود، وهذا ما نقصده من أنّها عالية على الشعور» (أدهم، 1993، ص178)، فاللغة عبارات قابلة لكل ممكن، وإمكان، لكل تأويل وتفسير، لكل تناقض، وتضاد، فحين تلقي بدلالاتها على الشعور، تكتسب علوا آخر، علوا من شأنه أن يضر بالشعور ذاته، لذا على الشعور أن يستجيب لدلائلية اللغة قبل أن يمارس تداولا ما.

والتراث الإنساني زاخر بتساؤلات مبدئية تمحورت حول ديمومة لقاء الإنسان باللغة منذ البدء، و« التفكير في المشكل المجرد قد كان في تنوّعه وطرافته على قدر ما كان يلابسه من مضايقات التناقض الحتمي في محاولة المفكرين النظر في علاقة الإنسان باللغة من حيث كانوا يفكرون في اللغة و باللغة في نفس الوقت»(عيد، 1979، ص ص 26،27)، فاللغة دليل إنساني على أناسة البشر، ويقين معرفي على ثورة السيمياء، واعتقاد بدقة منظومة العلامة في تحليل و تفكيك مختلف الأنظمة الأخرى، وما تحمله من مفارقات.

ومن قضايا علم اللغة العام المعروفة (أنّ اللغة ملك من يتعلمها لا أثر فيها للوراثة أو الجنس)، فهناك فرق بين الاستعداد للتكلم، والكلام نفسه، الأوّل ضروري للإنسان لا يختلف، فطبيعي أن يتكلم الإنسان، كما هو طبيعي له أن يمشي وأن يتنفس، وهذا الاستعداد الفطري لابد أن يتحقق للإنسان في صورة كلام فعلي، ما لم يوجد طارئ قاهر يمنع تحققه، وهذا الكلام الفعلي يعتمد على التعليم والتدريب المستمر لاكتساب لغة

المجتمع الذي يعيش المرء فيه، تماما كما يكتسب المظاهر الاجتماعية الأخرى من تقاليد وعادات، حتى تصبح اللغة بالنسبة له أمرا عاديا لا يكاد يشعر به حين يستعمله (المسيدي، 1981، ص 46)، فالدلالة إرادة بين طرفين، الفرد الذي يحقق حيوية اللغة بفعل القول، والجماعة التي تمد اللغة بقول الفعل.

والإنسان عنصر كوني على مستوى الخلق، وعلى مستوى الحركة لممارسة الحياة، وباللغة صار الإنسان إنسانا، وباللغة بلغ العقل الإنساني ذروته، كما أنّ الإنسان خص بقطبية للكون على المستوى المعرفي، وهي المتمثلة في قدرته على الاستيعاب المعرفي للكائنات، فيصبح هذا الكائن الصغير حاملا في ذاته لذلك العالم الكبير، فتحصل له بذلك القيومية والإشراف على سائر الكائنات، وهو ضرب من الرفعة والاستعلاء (النجار ، 1987، ص ص 41،42، أنيس، د ت ، ص 14)، و هذا ما تأكد في قوله تعالى : «وعلم آدم الأسماء كلّها، ثم عرضها على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء عن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا»[البقرة: 31].

و اللغة في حد ذاتها وضع من الإنسان للتعبير عن ما يخالج نفسه، و ما يريد الإفصاح به في حياته، فهي تتفاعل مع الأحداث، وتكتسب قدراتها وطواعيتها من متكّلميها باختلاف مستوياتهم اللغوية و الفكرية، حسب مواقع نشاطاتهم الميدانية. فاللغة كائن حيّ معبر عن مختلف الأشياء بصيغ مختلفة، « .. ويتفق اللغويون على أنّ الكلام هو أرقى درجات التعبير، وهذا الكلام لا يكون إلاّ بجملة من المفردات اللغوية يختارها الإنسان المتكلم تبعا لمستواه اللغوي، ولمستوى بيئته، وتتفق اللغات المستعملة في أنحاء الكرة الأرضية مع بعضها في الجوهر المعبّر عن الشيء » (طبي، 1992، ص ص 27،28)، واللغات مهما اختلف و تنوعت وتباينت إلاّ أنّها تقف على ثنائية العلامة (الدال/المدلول)، فالدلائلية حاضرة في كل قول و مع كل كلام، وهذا ما يعطي للدلالة الحق في التعبير عن ماهية اللغة و تحديد مرتكزاتها الأساسية.

وتحلينا الدلالة إلى حقول معرفية ساكنة و متحركة قصد إنتاج المعنى الممكن وبما يتجاوز الإمكان، هذا المفهوم الهارتري للنظرية العلامية التي «.. تحيل على تصوّر حركي وسكوني في الوقت ذاته ضمن الحقل النظري الذي تنتمي إليه. ومن هذه الوجهة يمكن أن نعتبر أنّ الدلالة تعني إما "إنتاج المعنى" أو "المعنى الذي حصل"» (سارتر، د ت، ص227)، فالدلائلية حاضرة في زمنية المعنى و قبله، كما أنّها امتداد لفعل القول المصاحب لصوت اللفظة.

ولا تقف الدلائلية عند علاقة الدال بالمدلول، إنّما تفتش عن ماهياتها في مختلف الأنساق النحوية والصرفية والبلاغية والبيانية والتعبيرية، التي تنتج عن احتكاك الكلمات داخل النص، فكلما تكاثفت الحمولة اللغوية تنوعت دلالاتها إذ «تستخدم المعلومات من المستوى الإدراكي لاتخاذ قرارات على المستويين النحوي والدلالي، ويتضمن علم النحو ترتيب الكلمات في الجملة، أمّا علم الدلالة، فيتضمن اختيار الكلمات، ويمكن أن يؤثر اختيار بنية نحوية محددة للمجلة على اختيار الكلمات، كما أنّ اختيار كلمات محددة يمكن أن يوجّه أو يعقد الاختيارات النحوية» (بيرنثال وبانكسون، د ت، ص 4)، فاختيارات اللغة و دلالاتها من إمكانات الكلمات وخياراتها.

لم تعد اللغة هي الوسيلة المسيطرة في تنظيم المعرفة أو إعادة عرضها، فهي موضوع كغيرها من موضوعات المعرفة، تُبحث بنفس الطرق التي تبحث بها الموضوعات الحية، والثروة، والقيمة، والتاريخ . ولم يعد السؤال الآن: ما الذي يجعل الكلمات ممكنة؟ بل أصبح: هل نحن قادرون على إضفاء المعنى عليها؟ وأصبح الصراع الفلسفي الآن يعني إعادة روابط جديدة بين اللغة والوجود (هوروكس وجفتيك، 2002 ، ص ص 69 ، 73)، وبين الدلالة وعناصر الفعل القولي.

يعرف دوسوسير التداول بأنّه: «التطابق الموجود بين صوتين معينين أو مجموعتين من الأصوات والتغير المنتظم الذي يقع بين مجموعتين من الأشكال الموجودة معا»(دي سوسور، د ت، ص 180)، فليس غرض التداولية الوقوف عند دلالة اللفظ و تجلياته، إنّما

القصد منها مقاربة المنظومة اللغوية بالظاهرة الاجتماعية، فاللغة بذلك تنتقل من التفاعلية إلى الفاعلية، وإلى هذا جرى عرف الألسنيين بأن:« التداولية علم جديد يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج، من ثمّ، مشاريع معرفية متعددة في دراسة "التواصل اللغوي وتفسيره"»(صحراوي، 2005، ص 16)، فالتغيير الصوتي يؤثر على الشعور والفكر معًا، و بذلك يشوه الناس الكلمات التي يتداولونها، حيث أنّهم يتعمدون البتر أو الإضافة أو اللحن فيها، فتكون الدلالة بذلك أفقية أو عمودية، لا تتجاوز مدلولات معنية، أو أنها تتجاوز ذلك عند المتلقي، لا عند المتكلم، وهنا تبدأ عملية التأويل التي تشبه إلى حد بعيد الخيانة بقصد أو بلا قصد، ذلك الكوجيتو المغاير، أنا موجود إذا أنا أفكر، فالوجود اللغوي بكل ما يحمل من براغمايتة وأدلجة ودوغمائية وبرادوكسية، لن يحيلنا إلا على مزيد من الغوغائية الشريدة والانطباعية العابرة، لأنّ ابستيمية اللغة نسق يصعب الوثوق به في وجود لا يهدأ وفي تفكير نابع من الحس والشعور في الوقت ذاته.

وقد تفقد اللغة تواصليتها مقابل التداولية التي تحفظ ذاكرة الكلمات والمفاهيم، ويعجز الفرد عن إنتاج مدلولات بمفرده، إلاّ إذا استند إلى جماعة من الناس ليكتسب الوثوقية التي تضفي على تواصليته فعلا تداوليا يبشر بميلاد دلالات قابلة للتداول، وتنفيذ حلقات من التواصل، فاللغة طبيعة الإنسان، الذي يسعى لفك العزلة عن كلماته أمام الآخرين، وكأن الآخر يمارس نوعا من الرقابة المشروعة أو المشروطة، مقابل فعل تواصلي قد ينتهي قبل أن يبدأ، أو أنه لا يبدأ أبدا ونحن ننتظر في حيرة أن يشرف على الانتهاء.

وتظهر جليا علاقة التداولية بالدلائلية، التي تؤكد صعوبة الاتفاق بين الفلاسفة واللغويين في إشكالية أصل اللغة أنّ الدراسة اللغوية تندرج من علم الأصوات إلى الصرف إلى النحو، وعلى مستوى النطق من الصوت إلى الكلمة إلى الجملة، والجملة هي هدف الدراسة اللغوية التي تسبقها، وهي التي يتحقق بها الفهم والإفهام. بسبب المستويات الثلاثة للغة الواحدة، اللغة المفهمة : أن تكون أداة للإفهام في أدنى درجاته، حيث لا يراعي فيها غالبا عرف اللغة المستعملة وما يقرره من نظام في الأصوات والصيغ والجمل. اللغة الصحيحة: هي درجة أعلى من كونّها للإفهام، فلا يتحقق لها هذا الوصف -الصحة- إلا بمراعاة ما

يحققها من نظام في الأصوات والبنية والإعراب. اللغة البليغة : هي التي تحقق مستوى الجمال في التعبير أو كما يقول جراي Gray "استعمال الكلمات استعمالا صحيحا تصور به الظلال الدقيقة للمعاني التي يرغب الكاتب في إثارتها" (عيد محمد، د ت، ص ص26،27)، فبين الناقل و المتلقي مستويات لغوية مختلفة و متباعدة من العادية إلى الإبداعية، وهذا ما يؤزم العملية التواصلية، لكنه لا يحرم التداولية من نشاطها الأناسي « .. ولقد ذكر لنا المتصوفة كلاما كثيرا وعميقا وصادقا، في شكواهم بأنّهم يشعرون بما يشعرون به، ثم يعجزون عن نقله إلى الآخرين، لعجز اللغة عن نقل ما هو بطبيعته خبرة موحدة فإذا فككتها في جمل وكلمات، أفسدتها ... وفي حدود هذه المفارقة في العلاقة بين الأشياء والكلمات، مما يؤدي إلى كثير جدا من عدم التفاهم الصحيح بين متكلم وسامع، أو بين كاتب وقارئ» (زكي، 1987، ص ص 55 ،56)، بعض هذه المستويات قد لا يكون للإنسان دخل فيه، كما لا يمكنه في الوقت ذاته أن يخرج منه.

ويكمن نزوع التداولية في وظائف اللغة وأهميتها في حقول التفكير والتواصل والتعلم، و بقية الأنشطة الإنسانية، فا للغة أداة التفكير، كما أنّها وسيلة التعبير عمّا يدور في خاطر الإنسان من أفكار، وما في وجدانه من مشاعر وأحاسيس وخلجات وجدانية . واللغة وسيلة الاتصال والتفاهم بين الناس، وذلك في نطاق الأفراد والجماعات والشعوب. و اللغة أداة التعلم والتعليم، ولولاها لما أمكن للعملية التعليمية/التعلمية أن تتم، ولانقطعت الصلة بين المعلم والمتعلم، أي لتوقفت الحضارة الإنسانية، وظلّت حياة الإنسان في نطاق الغرائز الفطرية والحاجات العضوية الحيوانية. واللغة خزانة تحفظ للأمة عقائدها الدينية، وتراثها الثقافي، ونشاطاتها العلمية، وفيها صور الآمال والأماني للأجيال الناشئة. و اللغة ذاكرة الإنسانية وواسطة نقل الأفكار والمعارف من الآباء إلى الأبناء، والتي لولاها لانقطعت الأجيال بعضها عن بعض. وحينذاك سيضطر كلّ جيل أن يبدأ من نقطة الصفر، وبذلك تبقى الإنسانية في مهد طفولتها العلمية والمعرفية (معروف، 1998 ، ص 31)، ولأنّ اللغة « أداة ذات أهمية بالغة في الحضارة الإنسانية، إنّها شيء لا غنى عنه. وأيضا فاللغة ملك مشاع لكل طبقات المجتمع من أعلاها إلى أدناها. ليس كلّ الناس يكتبون، و قليل منهم نسبيا من يهتمون بصناعة الأدب، ولكن كل الناس يتكلمون » (باي، 1983، ص 43)، و التركيبة

اللغوية لكل جملة مفردات متصلة أو منفصلة تضعنا أمام تداول كثيف لعلامات قصد فهم الآخر والتواصل معه، لأنّ «اللغة صناعة خطرة، تظهر خطورتها في كشفها عن عقلية صاحبها، و مقامه الاجتماعي... ما إن يتكلم المرء في موضوع من المواضيع حتى تنكشف حرفته و عمله ووضعه» (كشاش ، 2000، ص 78)، ورغم أنّ اللغة ملك مشاع بين كلّ النّاس، ينهل منها كلّ حسب قدراته الفكرية، ويعمل كلّ حسب كفاءته على تطويرها. إلاّ أنّ ذلك لا يعني أن تترك اللغة هباء منثورا بين العارفين والجاهلين يعيثون فيها دون قيد أو شرط، فالرقابة واجبة بخصوص الاستعمالات الحسنة للغة حسب القواعد الموضوعة، و المصطلحات المفروض وضعها للمحافظة على سلامتها وأصالتها وهويّتها وخوفا من الصيغ المغلوطة، و كثرة المصطلحات، حدّ الازدحام .

وهناك فرق بين ما يعتاده المتكلم من نظم اللغة التي يقيس عليها وما يفعله علماء النحو من وضع القواعد والقوانين، الأوّل يحدث دون قصد وتعمد أمّا الثاني فنية العمد واضحة مقصودة، الأوّل يتعوده الشعور حتى يصبح عادة من عاداته كالمشي والطعام، والآخر مقاييس محددة موضوعه للاكتساب والفهم . الأول انعكاس الاستعمال على ناطق اللغة، والثاني آراء الدارسين المقننة لمن يستعمل اللغة (عيد، د ت ، ص 31)، فقد يكون النحو عائقًا ابستيميًا، يحول دون تحقيق أنظمة التواصل الفعلي، إلا إذا كان فعلا خطابيًا بلا تكلف ولا اصطناع، ولا مباغتة، فدقة التواصل من سلاسة التداول و من بساطة الإجراء النحوي لكل نسق لغوي.

ونجد المقاييس الاثنا عشر التي اقترحها سيرل (Searle)، والخاصة بالأفعال الإنجازية تظهر لنا تلك الاختلافات و التصدعات التي تتعلق بأفعال الكلام، نظرا لتعلق بالتداولية بسبب :

– اختلافات بالنسبة لغاية الفعل،

– اختلافات في توجيه الترتيب بين الكلمات والأشياء،

– اختلافات تمس الحالات السيكولوجية المعبر عنها،

– الاختلافات في حدة الاستثمار أو الالتزام المعبر عنه في تقديم وجهة الإنجاز،

– اختلاف مقياس أو وضعية المتكلم والمستمع في حدود حساسية قوة إنجاز الفعل،

– الاختلافات في الطرق التي يرتبط بها القول بمصالح المتكلم والمستمع،

– اختلافات في العلاقة بمجموع الخطاب والسياق الخطابي،

– اختلافات المضمون القضوي، التي تحددها علامات أو طرق تشير إلى القوة الانجازية،

– الاختلافات بين الأفعال، و بين تلك التي تنجز كأفعال لغة دون خضوع لما هو مطلوب،

– الاختلافات بين الأفعال التي تتطلب مؤسسات خارج-لسانية في إنجازها و بين تلك التي لا تتطلب ذلك،

– الاختلافات بين الأفعال، أو الأفعال الإنجازية المطابقة لإنجاز ما، أو غير المتوافرة على ذلك،

– اختلافات في أسلوب إنجاز الفعل الإنجازي(أرمينكو، د ت ، ص 63).

فالمتكلم حين يتلفظ بجملة ما، فإنّه ينجز فعلاً مركبا لا من حيث الكلمات، إنّما من حيث الاقتراحات الممكنة من الدلالات والتأويلات، «فنظرية أفعال اللغة، تُعد دراسة نسقية للعلاقة بين العلامات ومؤوليها ويتعلق الأمر بمعرفة ما يقوم به مستعملو التأويل، وأي فعل ينجزون باستعمالهم لبعض العلامات» (أرمينكو، د ت ، ص64)، وكثيرا ما تعيقنا لغة الفعل عن فعل اللغة.

تخضع اللغة في تداولها الراهن اليومي و الواقع السياسي، و الديني و الثقافي، والإعلامي، إلى مؤثرات ومثيرات تقود الإنسان إلى إيجاد حلول تواصلية مع الآخرين لنقل التفكير في الشعور وبالشعور إلى الفعل السلوكي الصحيح، ولا يمكن للغة أن تتحرر من سلطة العادة والرغبة والإمتاع والامتناع، إلا إذا خضعت لسلطة المعرفة، ليجد الفاعل اللغوي ما يروق له من الكلمات المناسبة، خدمة للمنظومة الشاملة الموحدة بين أقطاب

المجتمع، وكذا علاقة الإنسان بالموجودات، لينتقل من مقولة "ما يجب قوله" إلى إمبريقية "ما يجب فعله"، « ... ولكن حينما أصبحت اللغة سجينة الكلمات، عاجزة عن نقل الحقيقية لمجتمع ما أو فرد ما، أدى ذلك إلى قيام نوع من الاختناق. الشيء نفسه يحصل حينما تعود مكانة الأب غير قادرة على التعبير عن نفسها بسبب فقدان سمات الرجولة. يوم يتم الاعتراف بالمذكر في لقائه مع المؤنث، وليس في إقصائه أو رفضه، آنذاك يمكن لتداول جديد للكلمة أن يحلّ محل الاستيهامات والمخيال» (غلبير، 1990، ص 35)، وتبقى الدلالات هي أصل لكل المعاني، وتبقى التداولية هي الحيوية التي تتميز بها كل لغة، أما عن التوهيمية البلاغية التي ننجذب إليها في كل حين، فهي من فوبيا الصمت الذي نخشاه كلما حاولنا أن نتقن الفعل الصوتي.

لقد أدرك نيتشه فعليّا خطورة "الكلمات"، كما أدرك خطر الاستخفاف بها من خلال الركون إلى التعويل على قدراتنا الذاتية في ادعاء كلّ منّا القدرة على التفسير و التباهي بالمعرفة. إنّ عالم المفاهيم و الرموز لا ينجلي كلّيا ليمنحنا حضوره الوضاء في تمام الشفافية والوضوح، بل إنّ المسافة لكبيرة بين ما تظهره الرموز و ما تحجبه ، بين ما تومئ إليه و ما تستره. إلاّ أنّ ذلك التباعد ذاته، هو ما يجعل عملية التأويل ممكنة، و تلك المسافة و ما تتطلّبه من عنت وجهد، ومن شكّ وتساؤل هي التي ترفع "القراءة إلى مرتبة تجعلها فنا من الفنون".(العيادي ،1994 ، ص 7)، فيوم تصبح اللغة فنا رائجا كالغذاء والماء، يمكننا القول عندئذ أننا تمكنا من معرفة اللغة، أو على الأقل من فعل اللغة، لكن هل نستطيع أن نتكلم بفنية عن فن خارج إرادة الفعل؟

ثالثا: في الاعتقاد [من دلائلية الإبلاغ إلى تداولية البلاغ]

يُكسب الاعتقاد الوعي لغة ذات تبصر أحادي الجانب، فبدل أن تقودنا الدلالة إلى معالم الإيمان واليقين، يلزمنا الشعور بالخلاص إلى انتقاء ألفاظ تستجيب لأدلوجة الكلام، و يؤكد راسل أنه« ليس ثمة اعتقاد بدون لغة رمزية بل هناك شعور معتقد، أي أنّ الاعتقاد هو شعور معتقد »(أدهم، د ت، ص 178)، فالثورة الحقة هي ثورة في الكلمات، وثورة في

المعتقد و ضده، أليس الإعتقاد هو كفر بالشرك ونفي له، وثورة ضد الوثن والصنم، وكل أشكال الهيمنة الملغاة؟

ويلازم الانتقادُ الاعتقادَ في كثير من قضاياه، فالإنسان يحيا الشك مثلما يحيا اليقين، ويقابل الفكر بالكفر، ليصبح الاعتقاد نفورا من فوبيا المصير، مثلما كان الشك تملصا من رتابة الوجود،«فالفلسفة الأكثر نقدية تتضمن لا محالة اعتقادات قوية، والاعتقاد الديني يتوفر اليوم من دون شك على حس نقدي لم نعد نجد له نظيرًا في مجتمعاتنا، لأنّه إذا سلمنا بأنه في مقدورنا قول كلّ شيء، والبرهنة على أي شيء، فإنّ الشيء الوحيد المتبقى أمامنا هو أن نكون الأقوى لنثبت آراءنا بما يكفي من الثقة كي نطمئن الحيارى ونجذبهم إلينا» (ريكور، 2011، ص6)، أن نهر في خطاباتنا، ونبدع بلغاتنا .

يقسم الغزالي أبو حامد في كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد" (الغزالي، 1994، ص ص 29-32) الناس حسب عقائدهم إلى أربع فرق:

الفِرق	الاعتقاد	الطبيعة/الفطرة	اللغة/التواصل
المعتقدة/ المشتغلة	آمنت بالله وصدقت رسوله واعتقدته الحق وأضمرته واشتغلت إما بعبادة وإما بصناعة.	تعلق النفس بمجرد قرينة ومخيلة سبقت إلى قلوبهم فقادتها إلى الإذعان للحق والانقياد للصدق.	ينبغي أن يتركوا وما هم عليه ولا تجرك عقائدهم. مخاطبتهم بالتصديق.
الكافرة/ المبتدعة	مالت عن اعتقاد الحق، فالجافي الغليظ منهم الضعيف العقل الجامد على التقليد الممتري على الباطل من مبتدأ النشوء إلى كبر السن.	تضربهم العلوم كما تضر رياح الورد بالجعل، فنور العقل كرامة لا يخص الله بها إلاّ الآحاد من أوليائه.	لا ينفع معهم إلا السوط والسيف، فأكثر الكفرة أسلموا تحت ظلال السيوف، إذ يفعل الله بالسيف والسنان ما لا يفعل بالبرهان واللسان.
المقلدة/ التابعة	اعتقدوا الحق تقليدا وسماعًا.	خصوا في الفطرة بذكاء وفطنة فتنبهوا من أنفسهم لإشكالات تشككهم في	يجب التلطف بهم في معالجتهم بإعادة طمأنينتهم وإماطة شكهم بما أمكن من

		عقائدهم.	الكلام المقنع المقبول عندهم.
الضالة/ القابلية	من أهل الضلال	يفترس فيهم مخائل الذكاء والفطنة ويتوقع منهم قبول الحق بما اعتراهم في عقائدهم من الريبة أو بما يلين قلوبهم لقبول التشكيك بالجبلة والفطرة.	يجب التلطف بهم في استمالتهم إلى الحق وإرشادهم إلى الاعتقاد الصحيح لا في معرض المحاجة والتعصب، فإنّ ذلك يزيد في دواعي الضلال ويهيج بواعث التمادي والإصرار.

فلكل طبيعة إنسانية مداخلها وأسرارها مما يحدد سبل التواصل وكيفيات التحاور وأسس التعامل اللغوي لتعزيز اليقين وتثبيته في النفوس والقلوب والعقول، فنظرة الغزالي للاعتقاد تقوم على فقه النفس البشرية وكذا حسن التواصل معها قصد ممارسة بخلاف ما يراه ويليم جيمس الذي أعطى للاعتقاد كل الفاعلية، إرضاءً للنفس التي يُخشى عليها من الموت لأنها لا تستجيب لعقلانية الواقع،«فإذا أزلت ذلك اليقين من نفوس هؤلاء، وجدت أنّ كلّ ما في الوجود من ضوء وإشعاع قد اختفى من نظرهم، وتأتي بعد ذلك غالبًا تلك النظرة للحياة المتهجمة العابسة التي هي حالة الانتحار» (جيمس، 1946، ص133). فمبدأ اليقين أساس الحياة، وهو أضمن مقولة لاستمرار الكائن البشري الذي يخشى على عقله من عقلنة تتجاوز حدود الإدراك، وتتوافق مع مطالب الاعتقاد.

بينما يرى بول ريكور أنّ تنوع الطبائع البشرية يضع الإنسان أمام احتمالين، احتمال القاعدة، و احتمال الاستثناء، ليصل إلى أن هذين الاحتمالين هما احتمال واحد، لأنّ كل إنسان ينظر إلى ذاته نظرة استثنائية، بينما ينظر إليه الآخرون أنه قاعدة أنطولوجية متكررة، «فتخضع القاعدة إلى نوع آخر من الاختبار هو اختبار الظروف و النتائج ... وهناك نوع آخر من الاستثناء - وهو الاستثناء عن القاعدة لصالح ذاتنا عينها- يقدم لنا نفسه لنا؛ الاستثناء هنا يأخذ وجهًا آخر، أو بالأحرى، إنّه يصبح وجهًا، و ذلك حين تجعل الغيرية الحقيقية للأشخاص من كلّ واحد منهم استثناء» (ريكور، 2005، ص501).

واللغة رهان تعين الإنسان على ممارسة الفعل الأخلاقي داخل بوتقة من الوعود والتعهدات، فكل اعتقاد في اللغة، هو اعتقاد بهاو تحصينا لألفاظها وممارسة ليقين المعنى، «إنّ مبدأ الأمانة للكلمة المعطاة لا يفعل هنا سوى تطبيق قاعدة المعاملة بالمثل على صنف الأعمال، حيث تكون اللغة موضع الرهان، بما هي مؤسسة تحكم كل صيغ المجتمع»(ريكور، 2005، ص 506)، يستبدل ويليم جيمس عنف اللغة بإرادة الاعتقاد، فيدعو إلى تقبل الفطرة، وال«لا تخشوا الحياة و لا تخافوها، بل اعتقدوا أنّها تستحق العيش فيها، وسوف يساعد هذا الاعتقاد على إيجاد تلك الحقيقة، وأنّ الدليل العلمي على أنكم على حق قد لا يتضح لكم تماما قبل أن تقوم الساعة» (جيمس، 1946، ص133).

وندرك بتعقل واعتقاد أنّه لا وجود لنشاط إنساني خارج اللغة، فكثيرا ما نمارس هذا النشاط في غفلة عنه أو منا، وكثيرا ما نطالب بلغة ونحن نملكها، أو أننا لم نعد في حاجة إليها، فبين الاعتقاد باللغة والاعتقاد فيها توجد مسافات رحيبة من المدلولات والعلامات، ومستويات متباينة من الوعي، ودرجات من التحمل والاستيعاب، وعلينا أن نخرج اللغو من السوسيولوجيا والسيكولوجيا أولا، ونعهد به إلى السيميوطيقا، حتى نجد له ما يناسبه من أنظمة تواصلية، وفقه واقع، وآفاق إستشرافية، كي لا تصبح اللغة قفزة في المجهول، أو نشاطا بيولوجيا عنيفا، لا وعي فيه ولا قبس ضوء، وقد يكون العنف اللغوي بسبب الخلل وعدم التوازن داخل المنظومة الواحدة، وليس بسبب الظلم والخلافات، فاللغة ليست محاولة لتغيير الطبقات أو خلق بدائل غوغائية بقدر ما هي محاولة لاستعادة التوازن، مع المحافظة على الاختلاف والإبقاء على التنوع، وربط الدال بالمدلول، والحلم بالمحال.

رابعا: في النص [من أدلوجة السياق إلى ميتافيزيقا النسق]

والنص في أبسط تحلياته هو «.. المدخل إلى الحقيقة يُتوسل به لإثبات موقف أو مبدأ من مبادئ عقيدة كاملة» (الزنّاد، 1993، ص13)، كما نظرة جوليا كريستيفا إلى النص «.. تحوّل النص إلى مجال يُعلب فيه و يُمارس و يُتمثل التحويل الابستيمولوجي والاجتماعي

والسياسي، فالنص الأدبي خطاب يخترق حاليًا وجه العلم والإيديولوجيا والسياسة، ويتنضع لمواجهتها و فتحها و إعادة صهرها، من حيث هو خطاب متعدد اللسان أحيانا ومتعدد الأصوات غالبا»(كريستيفا، 1997، ص 13)، فالنص حقل لكل اعتقاد وأدلجة وسياق لتأسيس أنظمة الخطاب و التواصل، بكل أجناسه وأنساقه، إذ «يقوم النص باستحضار كتابة ذلك البلور الذي هو محمل الدلالية، المأخوذة في نقطة معينة من لا تناهيها، أي كنقطة من التاريخ الحاضر حيث يلحّ هذا البعد اللامتناهي» (كريستيفا، 1997، ص14)، فيوقع بالعلامات كل الإمكانات في مفارقات عجيبة تقودها الميتالغة إلى أفق رحيبة من اللانهايات، إلى جانب ذلك نجد أن الأصوليين «لم ينظروا إلى النص تلك النظرة التي ضيقت مجاله إلى الحد الذي جعلته أمثلة محصورة العدد لا تتجاوز أصابع اليد، في الوقت نفسه الذي لم يوسعوا ذلك التوسيع الذي يميع الفوارق ويقضي على التمايزات»(رمضان، 2007، ص324)، فكل نسق يسوق نهجه على وتيرة النصوص القابلة لكل تأويل وفضح، فالاتفاق الوحيد الذي تقر به الأنساق المعرفية كلها، أنّ النصوص ولادة لكل إمكان وتمكين، وفي مقدمتها النص الديني.

إن الكلام في الدين بما ليس هو دين يعد بمثابة الانسحاب من كل مقولة محتملة، أو تواصل ممكن، فأنظمة الخطاب الديني تستوجب قبل الخوض في، فهو من المواضيع الخاصة التي يرتادها إلا الخواص، ولا ينثر عنها الغبار إلا خاصة الخاصة، هذا الحكر المدجج بالمعوقات و الطوباويات يحل كل نقد خارج منظومة الفقه إلى الإلغاء والصدامية، فكل محاولة للتقريب بين الفقهاء والفلاسفة بعيدا عن نسق الأدلوجة محكوم عليها بالفشل والتجاوز و الموت، وكأنّ النص لا يجد نشاطه إلا داخل قاموسية معلنة سابقا، و لغة محضرة في مخابر الاعتقاد وأسواق الإيديولوجيا، «... واليوم أيضًا نحن بحاجة ماسة إلى ما يخلق الاطمئنان في قلوبنا عبر التوسل بحجج دامغة أو حقائق سحرية تمنح لعالمنا، الموسوم بالتعقيد الشديد، نوعًا من التماسك والبساطة الديماغوجية .. إنّ من شأن الاعتقادات الوازنة و الراسخة أن تعيد تأسيس نقاش أكثر ذكاء، و تهب للجميع الإحساس

بأننا نتوجه في العالم نحو مزيد من الحوار والعمل المشترك»(ريكور، 2005، ص6)، وبالتالي لا يمكننا إيجاد يقين ما بمعاداة اللغة التي تسهم في نسج الحكمة، والقضاء على عنف الكلمات.

ويبقى النص في اتصال دائم مع الواقع، يمده بالدلالات و يستفيد منه، ليقترب أكثر من المدلولات، و النص كفيل بنقل كل أجزاء الواقع، إذا أحسنا حبك الجمل، وصياغة المفردات، و لسنا نخشى على النص من أدلوجة ما، إذا أحكمنا التعامل معه والغوص فيه بدواع سيميولوجية واضحة، ومناهج إبستمولوجية خالصة، فاللغة لا تبالي بالهيرمنيوطيقا بل تمدها بالشرعية و اليقين، و كلما حققنا إرادة الاعتقاد أكدنا مرة أخرى على صحة الاقتباس ورحابة اللغة.

المراجع:

- القرآن الكريم.

- أدهم، سامي. (1993). فلسفة اللغة تفكيك العقلي اللغوي، بحث ابستمولوجي أنطولوجي، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

- أرمينكو، فرانسوا. (د ت). المقاربة التداولية، (ترجمة: سعيد علوش)، بيروت: مركز الإنماء القومي.

- الزنّاد، الأزهر. (1993). نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصًا، ط. 1، بيروت: المركز الثقافي العربي،.

- العيادي، عبد العزيز . (1994). ميشيل فوكو، المعرفة والسلطة ، ط.1، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع.

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي. (1994). الإقتصاد في الاعتقاد، (تقديم: موفق فوزي الجبر)، ط.1، دمشق: دار الحكمة للطباعة والنشر.

- المسيدي، عبد السلام. (1981). التفكير اللساني في الحضارة العربية ، ط.1، تونس: الدار العربية للكتاب.

- النجار عبد المجيد . (1987). خلافة الإنسان بين الوحي والعقل "بحث في جدلية النص والعقل والواقع"، ط.1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- أمبرتو، إيكو. (2004). التأويل بين السميائيات والتفكيكية، ط. 2، (ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد)، المغرب: المركز الثقافي العربي.

- بيرنثال، جون وبانكسون، نيكولاس. (د ت). الاضطرابات النطقية والفونولوجية.

- جيمس، ويليم. (1946). إرادة الاعتقاد، (ترجمة: محمود حبّ الله)، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

- دي سوسور، فردينان. (1985). علم اللغة العام، ط 3، (ترجمة: د.يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: د.مالك يوسف المطلبي)، بغداد: دار آفاق العربية، الأعظمية.

- رمضان، يحيى. (2007). القراءة في الخطاب الأصولي، الاستراتيجية والإجراء، ط. 1، عمان: عالم الكتب الحديث.

- ريكور، بول. (2005). الذات عينها كآخر، ط. 1، (ترجمة: جورج زيناتي)، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

- ريكور، بول. (2011). الانتقاد والاعتقاد، (ترجمة: حسن العمراني)، المغرب: دار توبقال للنشر.

- زكي، نجيب محمود. (1987). رؤية إسلامية ، ط. 1، بيروت: دار الشروق.

- سارتر، جان بول. (د ت). دفاع عن المثقفين، (ترجمة: جورج طرابيشي)، بيروت: دار الآداب.

- صحراوي، مسعود. (2005). التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ط. 1، يروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

- طبي، محمد . (1992). وضع المصطلحات ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

- عيد، محمد. (1979). الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، القاهرة: عالم الكتب.

- غرانغيوم، غلبير. (1990). مقال " الأب المقلوب واللغة الممنوعة"، (ترجمة: محمد أسليم)، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت : مركز الإنماء القومي، العدد 80-81، سبتمبر، أكتوبر 1990.

- فريحة، أنيس. (د ت). نظريات في اللغة.

- كريس، هوروكس وزوران، جفتيك. (2002). فوكو، ط.1، (ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام)، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

- كريستيفا، جوليا. (1997). علم النص، ط. 2، (ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم)، المغرب: دار توبقال.

- كشاش، محمد. (2000). صناعة الكلام كيفية اكتساب مستحسن الخطاب ومسكت الجواب في ضوء الأساليب التربوية، ط.1، بيروت: المكتبة العصرية.

- ماريو، باي. (1983). أسس علم اللغة، ط.2، (ترجمة: أحمد مختار عمر)، القاهرة: عالم الكتب.

- نايف، معروف . (1998). خصائص العربية وطرائق تدريسها ، ط. 5، بيروت: دار النفائس.